

فهم النص القرآني في ضوء المنهج السيميائي (دراسة نظرية وتطبيقية)

د. خالد كاظم حميدي

كلية الشيخ الشيخ الطوسي
جامعة النجف الأشرف - العراق

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد الأمين وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه الميامين، أما بعد:

فمهمة هذا البحث محددة في اعتماد المنهج السيميائي في فهم النص القرآني لأنه - بحسب وجهة نظر الباحث - يعد المنهج الأقدر على فهم الدلالة التي يكون عليها محل الاتفاق أكثر من مساحات الافتراق، فهو يركز على أسس علمية في دراسة حياة العلامات اللغوية داخل الحياة الاجتماعية، التي يختلف مفهومها باختلاف النظريات والاتجاهات، جاعلا مما يحيط بالنص من أسباب النزول والمكي والمدني والمحكم والمتشابه وسائل تالية في الدراسة والتحليل، ويكون الأساس هو البنية اللغوية التي استعملت استعمالا خاصا معجزا، يمتاز من الاستعمال البشري شكلا ومضمونا، وبذلك نستطيع أن نحد من شراهة التأويل ورفض ما وقع فيه من أوهام قادت إلى نتائج خاطئة، أو مضللة، رَكِّينَ إليها بعض العلماء القدماء، وكررها المحدثون من

بعدهم، وهذا أدى إلى اضطراب الرؤية والمنهج المتبع لديهم في الكشف عن الحقيقة.

ومن أجل أن يبرهن الباحث على صحة المقولات التي اعتمدها يتوجب أن يوظف التنظير في الاشتغال والتطبيق، وقد أثر الباحث اختيار علامة في سورة قصيرة كريمة من سور القرآن الكريم وهي سورة الكوثر وكانت هذه العلامة هي اسم هذه السورة (الكوثر)، وكانت هناك جملة من المسوغات لاختيارها، فهي سورة قصيرة وبذلك تكون الإحاطة بها أكثر من غيرها، فضلاً عن ذلك فقد كان اسم هذه السورة محلاً لاختلاف المفسرين إلى مستوى كبير، كلا بحسب توجهه ومذهبه، وظهرت لنا تفسيرات كثيرة فرقت المسلمين ولم تجمع كلمتهم.

ويحاول البحث أن يجعل للسيميائية الكلمة العلمية والتفسير العلمي الذي تنطلق دلالاته من البنية اللغوية ذاتها، في توجيه دلالة عنوان السورة المباركة بوصف السيميائية ممارسة علمية تستعين في تحليل النص الأدبي بتقنيات منهجية مستمدة من علوم محايثة منها: علم البلاغة، وعلم الجمال، وعلم الدلالة، والبنوية، والإحصاء، والموازنة إلى غير ذلك. وتتمثل هذه المنهجية في ثلاث ركائز أساس هي: الوصف والتحليل وتقويم النتائج وتفسيرها، وصولاً إلى فهم الشكل الإجمالي للنص ودلالاته الكلية بوصفه عملاً معقداً ومتكاملاً ذا حدود متميزة تحدد نظامه الخاص ومغزاه.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على قسمين: غني القسم الأول:

بالجانب التنظيري وقد بحث فيه مفهوم السيميائية ووظائفها وموضوعها فضلاً عن اتجاهاتها في دراسة النصوص الإبداعية.

وجاء القسم الآخر ليبرهن على صحة المقولات التي تضمنها الاتجاه الأول والتي حددتها السيميائية في فهمها وتحليلها للنصوص الراقية. ثم ختم البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، تلاها كشاف

بأسماء المصادر والمراجع المعتمدة، وهي متفاوتة من حيث القدم والحداثة، ومتنوعة من حيث البلاغة واللغة والأدب والمعاجم والتفاسير القرآنية، ومصادر الحديث النبوي، فضلا عن الدراسات الألسنية والأسلوبية الحديثة. بشطريها البنيوي والسيميائي التداولي، التي أخذت مساحة أكبر من المصادر القديمة؛ بسبب حداثة المقاربة النقدية التي اخترتها، ولكن هذا لا يعني الانقطاع عن المصادر البلاغية القديمة.

وأخيرا أود أن أشير إلى أنني لا أدعي بلوغ الكمال في هذا البحث، وحسبي أنني درست واجتهدت، فإن أصبت فذلك من توفيقه سبحانه وتعالى، وإن أخطأت فهو من نفسي، وما توفيقني إلا بالله العليّ القدير عليه توكلت وإليه أنيب.

القسم النظري: السيميائية: المنهج والإجراء:

ترجع لفظة السيميائية إلى الأصل اليوناني semeion، الذي يشير إلى: سمة مميزة Marquee distinctive، أو أثر Trace، أو قرينة Induce، أو علامة منذرة Singe precursor، أو دليل Prevue، أو بصمة Imprints إلى غير ذلك من دلالات متقاربة يمكن جمعها تحت مسمى عام واحد هو Sema بمعنى علامة (1) Sign، التي تتألف من دال ومدلول.

وهذه اللفظة تماثل ما في العربية شكلا ومعنى، فالسيميائية والسيميائية والسيمياء، وعلم السيمياء ترجع كلها إلى الثلاثية المعجمية العربية: (سمو)، و(سوم)، و(وسم)، إذ تتيح لنا لفظة (سمو) (2) معنى: العلو، حتى سميت العرب كلّ عالٍ سماء، فقليل لظهر الفرس سماء، وللنبات سماء، ويقال إنّ أصل (اسم) سمو، وهو من العلو؛ لأنّه دلالة على المعنى.

(1) ظ: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي: 223.

(2) ظ: مقاييس اللغة، ابن فارس: 98/3-99.

وتتيح اللفظة (سوم) (1) معنى ((العلامة تجعل في الشيء، والسيما مقصور من ذلك، قال تعالى: ﴿يَسِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (2)، فإذا مدّوه قالوا السيمياء)) (3). ومنه وقولهم: "سيما فلان حسنة"، قال أبو بكر الأنباري (ت328هـ): ((معناه علامته، وهي مأخوذة من وسمت الشيء أسمه، إذا أعلمته... قال الشاعر:

غلامَ رماه الله بالحسنِ مقبلاً له سيمياء لا تشقُّ على البصرِ
كأنَّ الثريا علقت فوق نحرِهِ وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمَرِ

فزاد على "سيما" ألفاً ممدودة، ومعنى الحرف في مدّه كمعناه في قصره)) (4).

وتتيح اللفظة الثالثة (وسم) معنى يدلّ على أثر ومعلم، تقول: ((وسمت الشيء وسماً: أثرت فيه بسمّة، والوسميّ أول المطر؛ لأنّه يسمّ الأرض بالبنات، وسمّي موسم الحاج موسماً؛ لأنّه معلم يجتمع إليه الناس، وفلان موسوم بالخير، وفلانة ذات ميسم، إذا كان عليها أثر الجمال، والوسامة: الجمال، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (5)، أي الناظرين في السمة الدالة)) (6).

وبهذا يتضح التقاء هذه المادة المعجمية العربية مع نظيراتها الأجنبية

(1) ظ: م. ن: 3/98-99.

(2) سورة الأحقاف: 29.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس: 3/119.

(4) الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: 2/145.

(5) سورة الحجر: 75.

(6) مقاييس اللغة، ابن فارس: 3/110-111.

التي تؤول إلى النواة اللغوية اليونانية القديمة، فلا حاجة لترجمتها ترجمة تربك الدرس النقدي(1) على النحو الذي نجده في فوضى المصطلحات للترجمات المختلفة.

وتعرف السيميائية (Sociology) بعلم العلامات، أو علم الدلالات ، انطلاقاً من الخلفية الابستمولوجية الدالة بحسب تعبير غريماس (Greimas) على أن كل شيء حولنا في حال بث غير منقطع من العلامات(2) . وقد ظهر هذا العلم في بداية القرن العشرين(3)، وكان هذا الظهور علنياً مع العالم اللغوي فيردنان دي سوسير (F.D.Saussure) ، والفيلسوف الأمريكي شارل سندررس بورس (Peirce) وضمناً مع الفيلسوف الألماني أرنست كاسير (A. Cassirer) ومع بعض المناطق وفلاسفة مدرسة فينا أمثال فريج (Ferge) وفيتغنشتاين (Wittgenstein) وروسسل (Russel) وكارناب (Garnap). (4)

وقد حدد سوسير مهمة السيميائية بـ دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية 5، فتصبح العلامة

(1) ظ: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي: 223 وما بعدها

(2) ظ : معجم السيميائيات، فيصل الأحمر: 8.

(3) لم نرد في هذا القسم من الدراسة أن ندخل في التفرعات والآراء المختلفة التي ناقشت الجانب التنظيري للسيميائية، فقد اشبع هذا الجانب بالدراسة على مستوى تناول المصطلح والتأسيس المعرفي والفلسفي والخلفيات الابتسولوجية والمنهج والموضوع والخ، لذلك حاولنا إعطاء خلاصة واضحة وموجزة للسيميائية، التي تنطلق من منطلقات لسانية فهي أقرب لموضوع البحث.

(4) ظ : السيمياء العامة وسيمياء الأدب، عبد الواحد المرابط: 29.

(5) ظ: السيمائية، أصولها، وقواعدها، رشيد بن مالك : 21.

- عندئذٍ - العنصر القاعدي للمقاربة السيميائية، ويختلف مفهوم العلامة باختلاف النظريات والاتجاهات ، لكنها تظل تتحدد - عموماً - بصفتها شيئاً يدل على شيء آخر، فبموجب علاقة رابطة هي الدلالة (Signification)(1)، وبهذا تصبح المقاربة السيميائية ((كل عملية تأمل للدلالة، أو فحص لأنماطها، أو تفسير لكيفية اشتغالها ، من حيث شكلها وبنيتها ، أو من حيث إنتاجها واستعمالها وتوظيفها))(2) .

وإذا تمحورت دراسة العلامات على تصنيفها وعلى علاقاتها مع العلامات الأخرى وعلى الطريقة التي تتعاون بها في عملها فإنها تمثل بهذا عملاً للنحو الإشاري، وإما عندما تتمحور الدراسة على علاقة العلامة مع مرجعها ومع التأويل الناتج عنها، فإنها تمثل عملاً دلالياً إشارياً وعندما تعنى بدراسة العلامات بعلاقة هذه العلامات مع المرسلين أو المستقبلين فإنها تمثل عملاً تداولياً إشارياً(3).

وقد حدد موريس ثلاثة أبعاد للعلامة هي:

- 1- البعد التركيبي: ينظر إلى العلامة انطلاقاً من قدرتها على الإنضواء داخل النسق العلاماتي على وفق قواعد إسنادية معينة.
- 2- البعد الدلالي: يتعامل معها انطلاقاً من علاقة الدال بالممدول.
- 3- البعد التداولي: أي الاستعمال الاجتماعي للعلامة، عندما تصبح فعل كلام له انجاز محدد(4).

وينبغي القول هنا ان دراسة العلامة لم تكن باتجاه واحد عند

(1) ظ : السيميائية العامة وسيميائية الأدب: 8 .

(2) م . ن ، 7 .

(3) ظ: التأويل والعلاماتية، ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص: 38.

(4) ظ: العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه: 56.

السيميائيين فقد ميز بعض الباحثين أربعة اتجاهات سيميائية هي⁽¹⁾:

1- سيمياء التواصل: ويعتمد هذا الاتجاه على مبدئين هما: توفير القصد في التبليغ لدى المرسل، واعتراف المرسل إليه بهذا القصد، فالوظيفة الأساس لهذا الاتجاه هي تواصلية تبليغية.

2- وسيمياء الدلالة: جاء هذا الاتجاه لسد الثغرة التي تركها الاتجاه الأول بعنايته بالتواصل فحسب بين طرفي الاتصال، وتأتي سيمياء الدلالة للعناية بدلالة العلامة والمعنى الذي تؤديه.

3- سيمياء الثقافة: ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن العلامة لا تؤدي وظيفتها ودلالاتها إلا من خلال النظر إليها في مجالها الثقافي، وهذا لا يتحقق إلا بدراسة العلامة دراسة علائقية داخل نسق، وليس دراسة جزئية تنظر إلى العلامة بمفردها مستقلة عن نظامها النسقي، ونجد هذا الاتجاه يتجاوز النظام الواحد ليؤكد ضرورة دراسة النظام انطلاقاً من علاقاته بالأنظمة الأخرى باختلاف أنواعها واتجاهاتها.

4- وسيمياء المعنى، أو السيميائية التداولية التي تخطت المظهر التواصلية اللساني الذي يعتمد المظاهر الجزئية انتقلاً إلى المظاهر العامة، ومنها المظهر الدلالي؛ لأن العلامات التي تستعمل في التواصل هي جزء من العلامات الدالة والعلامات الدالة، جزء من نطاق الثقافة بوصفها العلامة الشاملة، أي النص الشامل، أما المعنى فهو خاصية كونية توجد في جميع العلامات المجسدة منها والمجردة الكائنة والممكنة.

أما انتهاج الباحث للتأويل السيميائي فيعني المزاجية بين ((السيمياء الموضوعية، والتأويل الذاتي، وبين علمية المقروء وفاعلية القارئ))⁽²⁾ فهذا المنهج ينشط كفايتنا الأدبية للتأويل، عندها يستطيع النص أن يشجعنا بتوحيد

(1) ظ: معجم السيميائيات: 85، 91-92، 97-98، السيمياء العامة وسيمياء الأدب: 65-96.

(2) السيمياء والتأويل، روبرت شولز: 10 (مقدمة المترجم).

ليحاول متقرباً من المناطق البكر التي افترضها البحث في عنوان سورة الكوثر، فقد كثرت الآراء في تفسيرها وتحديد دلالتها، وقد ذهب بعضهم إلى تحديد دلالتها بمعنى واحد؟!، ولذلك حاول البحث تطبيق المنهج السيميائي، ليرى مدى قدرة هذا المنهج في حل هذا الاختلاف عند بعض المفسرين الذي كانوا ينطلقون من منطلقات روائية وأمور تتصل بأسباب النزول وغيرها مما يجاور بنية النص وليس النص نفسه.

الدراسة التطبيقية: سيميائية العنوان في سورة الكوثر:

اسم السورة هو عنوان لها، ويعرّف العنوان⁽¹⁾، بأنه علامة لسانية تتألف من: كلمة أو كلمات أو جمل، وأحياناً نص، تظهر على رأس النص (المتن)، لتدلّ عليه وتعيّنه، وتشير إلى محتواه الكلي، وتجذب جمهوره الموجّه إليه. وأسماء السورة القرآنية توقيفية من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ جعل لكل سورة اسماً خاصاً يميزها من سواها⁽²⁾، وهناك أسماء اجتهادية غير توقيفية. ولسورة الكوثر⁽³⁾ اسم توقيفي واحد هو (الكوثر)، وهو المثبت في المصحف الشريف، واسمان اجتهاديين، الأول جملة وهو: (إنّا أعطيناك الكوثر)، والآخر كلمة: (النحر).

وترجع التسمية الاجتهادية الأولى إلى بدء السورة الكريمة بالآية: ﴿إِنَّا أَغْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾⁽⁴⁾، وقد عرفت هذه التسمية عند الصحابة (رض)، فعن عمرو

(1) ظ: عتبات، من النص إلى المناص، جيرار جينيت: 67.

(2) ظ: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: 82، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي: 989/1، أسماء سور القرآن وفضائلها، د. منيرة الدوسري: 76 وما بعدها.

(3) ظ: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي: 6/686، أسماء سور القرآن وفضائلها: 609-610.

(4) سورة الكوثر: 1.

بن ميمون⁽¹⁾، قال: ((لَمَّا طَعَنَ عُمَرُ وَمَاجُ النَّاسِ تَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَقَرَأَ سُورَتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنِّي أَعْطِيَنَّكَ الْكِوْثَرَ﴾، و﴿إِذَا جَاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾...))⁽²⁾، وبذلك عنون لها البخاري في صحيحه⁽³⁾، وعنون لها الثعالبي في تفسيره⁽⁴⁾. وسميت بذلك؛ لأنها أول آية افتتحت بها السورة⁽⁵⁾، للدلالة على السورة الكريمة كلها.

وبذلك تختلف هذه التسمية عن التسمية التوقيفية (الكوثر)؛ إذ عبّرت عن صيغة الإعطاء، بوجود معطٍ هو (الله تعالى) المعظم بضمير الجمع (نا)، فمجيء الكلمة (الكوثر) في نسق إسنادي كامل يحسن السكوت عنده، جعل العنوان أكثر وضوحاً وانطباقاً على السورة، فضلاً عن المعاني الأخرى التي أوجدها الإسناد.

أمّا التسمية الاجتهادية الثانية للسورة فهي: (النحر)، وقد ذكرها البقاعي⁽⁶⁾، وتابعه بعض المفسرين⁽⁷⁾، وعلل البقاعي هذه التسمية بقوله:

(1) عمرو بن ميمون الأزدي: هو أبو عبد الله، ويقال: أبو يحيى الكوفي، أدرك الجاهلية ولم يلقَ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وروى عن عمر، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي ذر (رض) وغيرهم، وعنه روى سعيد بن جبيرة، وأبو إسحاق البسيعي والربيع بن خثم وغيرهم، وثقه ابن معين والنسائي، توفي عام 75 هـ. ظ: التهذيب: 96/8، الكاشف: 344/2.

(2) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 686/6

(3) ظ: صحيح البخاري، البخاري: 92/6.

(4) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي: 632/5.

(5) ظ: أسماء سور القرآن وفضائلها: 610.

(6) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: 547/8.

(7) ظ: روح المعاني، الآلوسي: 478/10.

((لأنه معروف في نحر الإبل، وذلك غاية الكوثر عند العرب))⁽¹⁾، فتكون هذه التسمية الاجتهادية دالة على معنى الكوثر من دون لفظه، ومعنى الكوثر في النحر يكون من جهة المخاطب (بفتح الطاء)، التي تقابل كوثر المخاطب (بكسر الطاء)، فتصبح هذه التسمية التداولية غير التوقيفية قريبة المعنى من الاسم التوقيفي (الكوثر) بفارق هو أن التسمية التوقيفية أشمل دلالة؛ لأنها تتصل بالخير الكثير المعطى من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدنيا والآخرة، في حين يقتصر معنى الكوثر في النحر على الدنيا فقط، وليست توقيفية من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)⁽²⁾.

وعلى الرغم من أن الشيء المهم في نظام العنوانية . بحسب جينيت Gentte. هو العنوان الرئيس (الأصلي)، لكننا كلما وجدنا عنواناً مصدراً وحده، فهو دائماً يخضع للمعادلة الآتية: (عنوان + عنوان فرعي)، أو (عنوان + مؤشر جنسي)⁽³⁾، أي ما يشير إلى الجنس الأدبي للعنوان الرئيس كأن يكون قصة أو رواية، أو مسرحية، إلى غير ذلك، وهذا ما نجده إلى جانب اسم (الكوثر)، إذ يأتي عنوانها بهيأة شبه إضافة ينقل من الرسالة لإضافة عناوين السور غير واردة إلى لفظة (سورة) التي تشير إلى أن عنوان (الكوثر) إنما هو قرآن، وفي ذلك إحياء قرائي يشير إلى الطريقة التي يجب أن يقرأ بها النص بوصفه بنية غير منغلقة، فهو بهذه النظرية يكون متنياً إلى ثقافة أدبية، وإلى مجتمع حقيقي لازم لفهم دلالات بالإحالة إلى شواهد ثقافية وبنيات اجتماعية وأيديولوجية⁽⁴⁾.

وإذا كانت اللغة هي البوابة التي يدخل منها النص إلى عالمه الرحب،

(1) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 547/8.

(2) ظ: أسماء سور القرآن وفصائلها: 610.

(3) ظ: عتبات من النص إلى المناص: 68.

(4) ظ: من فلسفة التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفي: 242.

فإن الدخول إلى عالم النص، ينطلق من العنوان، فهو العنصر الأساس في التشكيل الأدبي، إذ يقود إلى خيوط أساسية في بناء النص وحلّ شفراته، إذ توحى قراءته الأولى احتمالات عدّة تسعى إلى تجميع المغزى، تليها القراءة الثانية⁽¹⁾.

فالكوثر من الكلمات المفتاحية⁽²⁾؛ وذلك بسبب غموض دلالاتها فهي ككلمة شيء، تشير إلى أي شيء كان.

والكوثر في اللغة: ((أصل صحيح يدل خلاف القلّة من ذلك الشيء الكثير، وقد كثر، ثم يزداد فيه للزيادة في النعت، فيقال: الكوثر الرجل المعطاء، وهو فوّعل من الكثرة: قال الكميت:

وأنت كثير يا بن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا⁽³⁾)).

فالكوثر صفة للمبالغة، نحو قولهم: (رجل كوثر)، أي كثير العطاء والخير، ويكون ذاتاً موصوفة بكثرة الخير، بحسب ما ورد في اللسان: (الكوثر: السيد الكثير الخير)، وعلى هذا تكون كلمة (الكوثر) صفة وموصوفاً، فهي تعني شيئين: الكثرة، وهي صفة، و(الخير) بوصفه شيئاً، فهي

(1) ظ: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، د. نعمان بوقرة: 58.

(2) الكلمات المفتاحية: مصطلح إجرائي يستند إلى الثقل التكراري والتوزيعي في النص لكلمات معينة مبنوثة في نسيجه تستعمل لفتح مغاليقه وتبديد غموضه وهي مختلفة عن الكلمات السياقية التي يرجع تكرارها إلى الموضوع أكثر من الاتجاه السيكلوجي أو الأسلوبي، لذا تعد أكثر انضباطاً وإحكاماً في تفسير النص من منظور نفسي أو وظيفي؛ ظ: البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، د. سعد عبد العزيز مصلوح: 225 وما بعدها، نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج: 78-79.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس: 160/5-161.

تعني الخير الكثير، وليس الكثير فقط، ولذلك يقال: (هو رجل كوثر) ونسكت، ولا يقال: رجل كثير ونسكت حتى تتم ذلك بقوله: رجل كثير الخير أو كثير العطاء أو كثير المال إلى غير ذلك، وتقول: اقبل الكوثر، أي السيد الكثير الخير، ولا تقول: أقبل الكثير⁽¹⁾.

وقد ذكر المفسرون؛ قدامى ومحدثون معاني متعددة لمعنى (الكوثر)، ويبدو أن كثرة الدلالات نتج بفعل انفتاح النص واختلاف زاوية رصد المفسر للنص، فمنهم من اعتمد على المأثور من أحاديث نبوية شريفة، وشواهد تتعلق بأسباب النزول، ومنهم من نظر إلى سياق النص ليجيء بمعان تتناسب دلاليًا مع السياق اللغوي وعلاقاته المعقدة. ونجد أن أغلبهم قد ذكر المعاني كلها؛ لأنهم وجدوها ملائمة ومؤدية للغرض، وسبب ذلك أن معاني كلمة (الكوثر) ككلمة الشيء، كلاهما معرف بـ(أل) لكن (أل) التعريف لا تفيدهما تعريفًا، فهي معرفة كالنكرة، وبذلك تكون قريبة من اسم الموصول من ناحية غموض معناه الذي يحتاج إلى جملة الصلة التي تصفه لتحده، فعندما نقول: "جاء الذي...."، لا نفهم من الذي جاء، وكذلك قول المفسرين بأن الكوثر هو: الخير الكثير⁽²⁾، إذ لا يمكن تحديد ماهية الشيء وكميته. وبهذا أصبحت كلمة (الكوثر) خصبة التأويل، فكل خير كثير يصدق

(1) ظ: لسان العرب، ابن منظور، مادة (كثر): 37/12، على طريق التفسير البياني، د.فاضل السامرائي: 83/1.

(2) ظ: التبيان، الطوسي: 417/10، مجمع البيان، الطبرسي: 458/10، مفاتيح الغيب، الرازي: 120/32، الجامع الأحكام القرآن، القرطبي: 147/10، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي: 836/2، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: 521/8، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 547/8، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود: 477/6، تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: 382/5.

عليها، ومن ذلك ما قيل إنها تعني (نهر في الجنة)⁽¹⁾، معتمدين في ذلك على حديث للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اختلفوا في إيراد نصه، قال أنس (رض) بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاء ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آناً سورة، فقرأ سورة الكوثر، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: ((فإنه نهر وعدنيه عليه ربي خيراً كثيراً، وهو حوضي، ترد عليه أمتي يوم القيامة، أنيته عدد نجوم السماء، فيختلج القرن فيهم، فأقول: ((يا رب إنهم من أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك))⁽²⁾ وروي في صفته، أنه أحلى من العسل وأشدّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، لا يظماً من شرب منه أبداً⁽³⁾.

وعندما فسر ابن عباس (رض) الكوثر بإطلاق المعنى: بالخير الكثير، قال له سعيد بن جبير (رض): فإن أناساً يقولون: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير⁽⁴⁾.

(1) ظ: تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي: 447/2، التبيان: 418/10، مجمع البيان: 459/10، الكشف، الزمخشري: 801/4، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي: 529/5، مفاتيح الغيب: 124/32، الجامع الأحكام لقرآن: 147/10، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 836/2، البحر المحيط: 520-521، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 592/4، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البضاوي: 626/2، تفسير الجلالين، السيوطي: 80، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 477/6.

(2) مجمع البيان: 459/10.

(3) ظ: الكشف: 801/4.

(4) ظ: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 477/6.

وقيل إنّ الكوثر هو (الحوض)⁽¹⁾، ويقال إنه لمّا قال سعيد بن جبير: الكوثر: الخير الكثير، قيل له: فقد قيل: إنه الحوض. فقال: الحوض من الخير الكثير⁽²⁾. وقيل: أن الكوثر هو الإسلام⁽³⁾، وقيل إنّه التّـرّان⁽⁴⁾، وقيل النبوة⁽⁵⁾. وقيل: كثرة النسل من ولد السيّدّة فاطمة الزهراء (عليها السلام)⁽⁶⁾، وقيل: كثرة الأصحاب والأتباع⁽⁷⁾، وقيل: الشفاعة وقد نقل هذا الرأى عن الإمام الصادق (عليه السلام)⁽⁸⁾، وقد نقل عنه أيضاً أنه نور في قلبه دلّ عليه

(1) ظ: إعراب القرآن، النحاس: 281/5، التبيان: 417/10-418، مفاتيح الغيب: 124/32، الجامع لأحكام القرآن: 147/10، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 548/8، روح المعاني: 479/10.

(2) ظ: إعراب القرآن: 281/5.

(3) ظ: مفاتيح الغيب: 126/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10، روح المعاني: 479/10.

(4) ظ: إعراب القرآن: 281/5، مجمع البيان: 460/10، المحرر الوجيز: 229/5، مفاتيح الغيب: 126/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10، البحر المحيط: 521/8، تفسير الجلالين: 80، تفسير الصافي: 382/5.

(5) ظ: مجمع البيان: 460/10، مفاتيح الغيب: 124/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10، البحر المحيط: 521/8، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 477/6، تفسير الصافي: 382/5.

(6) ظ: مجمع البيان: 460/10، مفاتيح الغيب: 124/32، تفسير الصافي: 382/5، روح المعاني: 479/10، الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: 428/20، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: 385/20، التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني: 434/5-435.

(7) ظ: مجمع البيان: 460/10، المحرر الوجيز: 529/5، مفاتيح الغيب: 126/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10، البحر المحيط: 521/8، روح المعاني: 479/10.

(8) ظ: مجمع البيان: 460/10، المحرر الوجيز: 529/5، مفاتيح الغيب: 127/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10، تفسير الجلالين: 80، تفسير الصافي: 382/5.

وقطعه عما سواه⁽¹⁾، وقيل: التوحيد⁽²⁾، وقيل: تيسير القرآن وتسهيل الشرايع⁽³⁾، وقيل: الإيثار⁽⁴⁾، وقيل: الذكر الجميل في الدنيا والآخرة⁽⁵⁾، وقيل: علماء أمتهم⁽⁶⁾، وقيل: الفضائل الكثيرة التي فيه⁽⁷⁾، وقيل: رفعة الذكر⁽⁸⁾، وقيل: العلم⁽⁹⁾، وقيل: الخلق الحسن⁽¹⁰⁾، وقيل: الكوثر هذه السورة⁽¹¹⁾، وقيل: لا إله إلا الله محمد رسول الله⁽¹²⁾، وقيل: الفقه في الدين⁽¹³⁾، وقيل: الصلوات الخمس⁽¹⁴⁾، وقيل: العظيم من الأمر⁽¹⁵⁾، وقيل: العلم والعمل وشرف الدارين⁽¹⁶⁾، وقيل: المقام المحمود⁽¹⁷⁾،

-
- (1) ظ: المحرر الوجيز: 529/5، الجامع لأحكام القرآن: 148/10، البحر المحيط: 521/8، روح المعاني: 479/10.
- (2) ظ: المحرر الوجيز: 529/5، البحر المحيط: 521/8.
- (3) الجامع لأحكام القرآن: 148/10، البحر المحيط: 521/8.
- (4) ظ: م. ن: 148/10، م. ن: 521/8.
- (5) ظ: مفاتيح الغيب: 123/32.
- (6) ظ: م. ن: 124/32.
- (7) ظ: م. ن: 127/32.
- (8) ظ: م. ن: 127/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10.
- (9) ظ: مفاتيح الغيب: 127/32.
- (10) ظ: م. ن: 127/32.
- (11) ظ: م. ن: 127/32.
- (12) ظ: الجامع لأحكام القرآن: 148/10.
- (13) ظ: م. ن: 148/10.
- (14) ظ: م. ن: 148/10.
- (15) ظ: م. ن: 148/10.
- (16) ظ: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 626/2.
- (17) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 548/8، روح المعاني: 179/10.

وغيرها.

ويمكن القول إنّ كلّ المعاني التي ذكرها المفسرون صحيحة، بل تستطيع كلمة (كوثر) استيعاب معانٍ جديدة، ترتبط بقدرة المؤول وأدواته وثقافته وخبرته الجمالية وما يتناسب مع مقتضيات العصر؛ لأنّ القرآن الكريم نصّ إشاري قادر على تحقيق متطلبات كلّ عصر ويتفاعل مع الثقافات المتعددة والأغراض المختلفة.

وبهذا التوجيه يصبح العنوان (الكوثر) أكثر انضباطاً وإحكاماً في تفسير النص من منظور نفسي أو وظيفي إذ ترتبط هذه الكلمة ارتباطاً عضوياً بالسورة الكريمة⁽¹⁾. ورصد فاعلية التسمية فيها أسهل من غيرها، فهي تتألف من ثلاث آيات، ويكون (الكوثر) هو الملمح الأكثر هيمنة في بنية السورة، فهي تتصل بباقي الآيات على المستوى الدلالي العميق؛ لأنّ الأمر بالصلاة والنحر، ووصف الشانئ يتعالق بالإعطاء المعبر عنه بـ (الكوثر)؛ لأننا نستطيع أن نقول ما دام الإعطاء غير محدد فيجب على المعطى له أن يكون شكره غير محدد أيضاً، فالصلاة هنا ليست الصلاة المفروضة، بل هي صلاة شكر أو الجمع بينهما⁽²⁾، ومثل ذلك صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما نزلت عليه آية تكريم شبيهة بآية الكوثر، وهي: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾⁽³⁾، فقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى تورمت قدماه فقبل له:

(1) ظ: البنى الأسلوبية الجزئية والتركيبية في سورة الناس، د. توماس غازي حسين، خالد كاظم حميدي، (بحث مقبول للنشر): 6.

(2) المحرر الوجيز: 229/5، مفاتيح الغيب: 129/32، البحر المحيط: 521/8، تفسير القرآن العظيم: 593/4.

(3) سورة الفتح: 2.

قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))⁽¹⁾.
وبهذا يتضح أنّ هناك كوثرين هما: كوتر المعطي المطلق، وكوتر المعطي له في الصلاة الكثيرة والنحر الكثير، فتتضح علاقة عنوان السورة الكريمة بالآية الأولى والثانية، أما الآية الثالثة فتتصل بالكوتر من حيث التضاد الذي يظهر في تقديم رؤية قرآنية جديدة مخالفة للرؤية السائدة بأنّ النسل هو الامتداد الطبيعي الأساس لتحقيق رغبة الخلود عند الإنسان، أو هو المفضل في الرؤية الجاهلية بالقياس إلى المآثر والأعمال الحميدة التي يخلفها الإنسان، بدليل أن القرآن الكريم جعل المنقطع الذكر، أو الأبر هو الكافر الذي لا عقب له ((إنّ شأنك هو الأبر))؛ لأنّ العقب غير مضمون أن يكون خيراً، ومصادقه بحسب أسباب النزول هو (العاص بن وائل)⁽²⁾، أو (عمرو بن العاص)⁽³⁾، أو (أبو جهل)⁽⁴⁾، أو (عقبة ابن أبي معيط)⁽⁵⁾، أو كفار قريش بشكل عام⁽⁶⁾، وهؤلاء لم يغنهم الولد في شيء؛ إذ نقطع ذكرهم عن الخير⁽⁷⁾، في حين أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي شمتت به قريش إثر وفاة ولديه هو صاحب الكوتر لما تحمل هذه الكلمة من

-
- (1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 251/4، صحيح البخاري: 44/6؛ الكافي، الكليني: 95/2. وذكرت الرواية نقلاً عن الإمام الصادق ؑ وفيها أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان عند عائشة (رض) ليلتها فقالت: يا رسول الله لمّ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: يا عائشة "ألا أكون عبداً شكوراً".
- (2) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري: 399، مجمع البيان: 10-461، الكشف: 802/4.
- (3) تفسير القمي: 447، تفسير الصافي: 383-384.
- (4) إعراب القرآن: 281، المحرر الوجيز: 530/5، مفاتيح الغيب: 133/32.
- (5) ظ: مفاتيح الغيب: 133/32، لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: 217.
- (6) التبيان: 418/10، مفاتيح الغيب: 132/32.
- (7) ظ: التبيان: 418/10، مجمع البيان: 10-461، الكشف: 802/4.

معانٍ قرآنية مطلقة تخالف ما تعرف عليه الجاهليون، فالعقب في هذه الرؤية قد يكون جزءاً من الكوثر إذا كان مؤمناً، أو لا يكون أصلاً، لهذا لا يمكن الركون إلى تقرير معنى وحيد للكوثر هو كثرة النسل، إيثراً للتناسب المعنوي وحده بين آيات السورة الكريمة الثلاث أو أنهم جعلوا ذرية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من السيدة فاطمة الزهراء أفضل معاني الكوثر، قال الطباطبائي: ((إن كثرة ذريته (صلى الله عليه وآله وسلم) هي المراد وحدها بالكوثر))⁽¹⁾، وأعطى صاحب تفسير الأمل بعداً معنوياً لنسل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من السيدة فاطمة (عليها السلام)، إذ لم يجعلهم امتداداً جسدياً فحسب، بل فيه بعد معنوي وذلك في قوله: ((إن الخير الكثير، أو الكوثر هو فاطمة الزهراء (عليها السلام)؛ لأن نسل الرسول انتشر في العالم بواسطة هذه البنت الكريمة.... وذرية الرسول من فاطمة لم يكونوا امتداداً جسمى للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فحسب، بل كانوا امتداداً رسالياً صانوا الإسلام، وضحوا من أجل المحافظة عليه))⁽²⁾.

وبمثل تلك الرؤية تحدّث الدكتور محمود البستاني في تفسيره اعتماداً على التناسب الدلالي القائم على تشابه المعاني في الآيات الثلاث قائلاً: ((ولا شك أن تفسير الكوثر بفاطمة عليها السلام من حيث كونها هي التجسيد للذرية والنسل، يظلّ هو الدلالة الأوثق لصوقاً بطبيعة المبنى الهندسي للنص))⁽³⁾.

فالركون إلى ترجيح معنى (الكوثر) بمعنى وحيد أو مرجح على المعاني الكثيرة التي تطلقها لفظة (الكوثر) يعدّ من القراءات الباطنية للنص، في نظر

(1) الميزان في تفسير القرآن: 429/20.

(2) الأمل في تفسير الكتاب المنزل: 381/20.

(3) التفسير البنائي للقرآن الكريم: 430/5.

التداوليات التأويلية⁽¹⁾، ذلك أن الآية الثالثة من السورة الكريمة تصور معنى النسل متذبذبا بين الخير والشر، الشر المصرح به والخير المسكوت عنه، ذلك أن نزول الآية الكريمة أتت لمناسبة حادث وفاة ولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عبد الله⁽²⁾، وليس بإنجاب ابنته فاطمة (عليها السلام). وقد ركز فريق من المفسرين على المعنى المستوحى؛ لأنه يعطي نسقا دلاليا متجانسا، والصحيح أن يركز على المعنى الصريح والمستوحى في وقت واحد، لغرض الموازنة، فيكون نسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من ابنته (عليها السلام) أحد مصاديق الكوثر التي لا تعد ولا تحصى. وبذلك يصبح (البتر) من الألفاظ التي تترابط بمعاني الكوثر من ناحية التضاد، إذ تخضع هيمنة الوظيفة الأدبية لأي نص لغوي عند جاكوبسن R. Jaobson، عندما يخضع لمعيار هو: ((إسقاط مبدأ التشابه الموجود في محور الاختيار على محور التركيب))⁽³⁾، ومحور الاختيار Selection هو محور تزامني تتنافس فيه المفردات في الذهن على أساس التعادل أو التشابه أو الاختيار المتضمن للتشابه⁽⁴⁾، نحو: كوثر وأبتر، فهما من المتضادات دلاليا ومتشابهات لفظا على وزن واحد هو (أفعل).

(1) ظ: سيمياء التأويل، رشيد الإدريسي: 23.

وقد سمى امبرتو إيكو هذا النوع من التأويل مهارة غير مراقبة في الانزلاق من مدلول إلى مدلول، ومن تشابه إلى تشابه، ومن ترابط إلى آخر، أو بعبارة أخرى هو تضخم إيحائي ينطلق من علاقة محدودة، ويمر بسلسلة ترابط فيما بينها إلى أن تنتهي إلى علاقة بعيدة من تلك التي انطلقت منها. ظ: الأفق التداولي، إدريس مقبول: 31.

(2) ظ: أسباب النزول: 399.

(3) ظ: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسن دراسة ونصوص، فاطمة الطبال بركة: 76.

(4) ظ: السيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل: 137.

وهذا الأمر يجعل التركيب خاضعاً لمبدأ التشابه فضلاً عن خضوعه لمبدأ التجاور، وينتج من ذلك تكرار لمظاهر لغوية على المستوى الخطي للمرسل، إذ يوضع كل مقطع في علاقة تشابه مع كل المقاطع الأخرى داخل النص، سواء على مستوى نبر الكلمة أم طولها أم قصرها أم حدودها، وعلى مستوى الوقفة التركيبية فتتجه كل المقاطع نحو وحدات قياسية مشتركة⁽¹⁾.
فالتناسب في النص قائم على ما يأتي:

تشابه	}
تشابه	
اختلاف	

ويمثل الاختلاف كسراً للنمط المتشابه السابق، بإيقاع غير متوقع، يعززه الإيقاع السجعي⁽²⁾، المبيّن في الجدول الآتي:

الفاصلة	عدد كلماتها	آية
الكوثر	3	إنا أعطيناك الكوثر
وانحر	3	فصل لربك وانحر
الأبتر	4	إنّ شأنك هو الأبتر

نلاحظ وجود اعتدال في إيقاع الآيتين الأوليين (3-3) ووجود كسر للنمط في الآية الثالثة (3-3-4)، وهذا يشير التنبيه إلى التركيز على الكلمة التي كسرت النمط وهي كلمة ضمير الفصل (هو)؛ لأن أصل الكلام: (إنا أعطيناك الكوثر،

(1) ظ: م. ن: 137.

(2) الإيقاع السجعي: تكرار دوري يحسب بالسكتات المعنوية بعد كلمات القرائن التي تقطع بفواصل موقوفة. وهو إيقاع معنوي مرن، يعدّ من أخص خصائص الشكل العامة للمستوى الصوتي في القرآن الكريم، وأشدها تأثيراً في النفس؛ لأنه يؤلف جوهر وجود أي نص ذي سمات أدبية. ظ: نظرية السجع في القرآن الكريم، د. توماس غازي حسين، بحث مخطوط، نسخة المؤلف.

فصلٍ لربِّك وانحر، إنَّ شأنك الأبتـر). وإيقاعها ينتظم على وفق قاعدة الاعتدال(1): (3-3-3)، ويظهر في الصورة المفترضة تكلف المنشئ، وملل المتلقي، برأي حازم القرطاجني(ت864هـ) إذ يقول: ((وإنما لم يجيء [السجع] على أسلوب واحد؛ لأنه لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه، ولأنَّ الافتتان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد))⁽²⁾.

ومن إعرابات الضمير(هو) أنه ضمير فصل وتوكيد⁽³⁾، ينشئ علاقات كثيرة مع الضمائر الواردة في السورة الكريمة: الضمير المتصل للمتكلم:(نا) الذي يعود على الله تعالى، وضمير المخاطب المتصل:(الكاف) الذي يعود على النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم).

نا ← متصل

الكاف ← متصل

هو ← منفصل

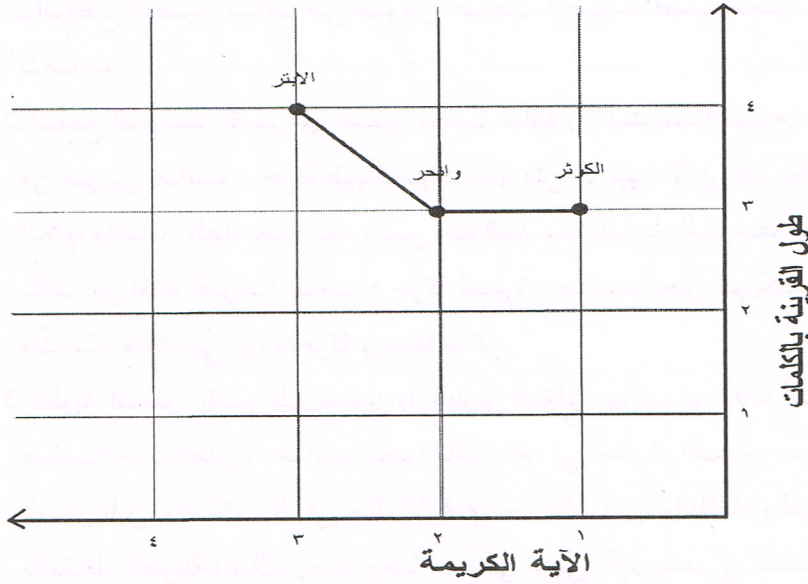
فمن ناحية الاتصال والانفصال بين الضمائر يكون(هو) كالنشاز غير المتوافق مع الاتصال في الضميرين:(نا، والكاف)، أما من ناحية تداولية، فنجد بين الضمير(نا) وضمير المخاطب:(الكاف) ترابطاً إيجابياً، لا يوجد بين الضمير المتصل(نا) العائد على الله تعالى، والضمير المنفصل:(هو) العائد على الكافر، لذلك تحصل بينهما علاقة سلبية، إذ لم يصرح أنَّ ذرية الشانئ معطاة

(1) الاعتدال: تساوي القرائن بعدد الكلمات. ظ: المثل السائر: 1/235، حسن التوسل: 213، البرهان: 1/62.

(2) منهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني: 388، 389، ظ: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: 1/62.

(3) ظ: التبيان في إعراب القرآن، العكبري: 2/589.

من الله تعالى؛ لأنها آيلة للبتر، وهو ما صُرح به بعلاقة سلبية، تظهر الإشارة إلى أن قطع النسل (الشأن) ليس بأمر من الله تعالى، إنما كان البتر من لوازم الشأن نفسه، وهو ما يظهر في الإعراب الثاني للضمير (هو)، بأنه مبتدأ خبره لفظة (الأبتر)⁽¹⁾، والجملة من المبتدأ والخبر خبر (إن) في الآية الكريمة. ويمكن تحويل الدال السمعي والتجريد العددي في الجدول إلى دال بصري⁽²⁾ بالرسم البياني الآتي:



ويعزز ما ذهبنا إليه الإيقاع النبري للسورة الكريمة، الذي يظهر كآتي:

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

(1) ظ: التبيان في إعراب القرآن: 589/2، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش 427.

(2) ظ: علم اللغة العام، سوسير: 30.

إذ تمثل العلامة (x) موقع المقطع المنبور، وتمثل العلامة (/) موقع المقطع غير المنبور، باتباع قوانين النبر⁽¹⁾، التي تفرض وقوعه على المقطع⁽²⁾ الثاني إذا كانت الكلمة متألّفة من مقطعين، عندما نعدّ من آخر الكلمة، وذلك

(1) ظ: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرّفها، محمد الأنطاكي: 52/1، البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان: 181/1، خواطر في تأمل لغة القرآن، د. تمام حسان: 137.
(2) تصنف أشكال المقاطع في العربية على النحو الآتي:

1- المقطع القصير: يتألّف من صوتين: صامت + صائت قصير، نحو: كَتَبَ: كَ، تَ، بَ.

2 المقطع المتوسط: يقسم على قسمين بحسب نهايته: (أ) المتوسط المفتوح: يتألّف من صوتين: صامت + حركة طويلة (صوت مد)، مثل: لا فيها: لا، في، ها. فكل من اللام، والفاء، والهاء بعده مد، وليس بعد المد سكون. (ب) المتوسط المغلق: يتألّف من ثلاثة أصوات: صامت + حركة قصيرة + صامت. نحو: لم يكتب: لَمْ، يَكْتُبْ، تُبْ، فاللام في (لم) متحركة وبعدها ساكن.

3 الطويل المغلق: يقسم على قسمين: (أ) الطويل المغلق: يتألّف من ثلاثة أصوات: صامت + حركة قصيرة + صامت، نحو: باب، نام، في حال الوقف، ووجوده في الحشو قليل، ولا يكون إلا في حال الادغام، نحو: (الضالين، والطامة، والصاخة)، فالمقاطع الطويلة: (ضالّ، وطامّ، وصاخّ)، وهي تنتهي بأول عنصري التشديد في الكلمات، أما العنصر الثاني، فهو متحرك وهو بداية مقطع جديد. (ب) الطويل المضعف الإغلاق: يتألّف من أربعة أصوات: صامت + حركة قصيرة + صامت + صامت، نحو: بخز، بغذ. ولا يأتي إلا في الأعجاز حين الوقف بالسكون، فإذا اتصل الكلام توزع الساكنان على مقطعين، فنقول في (كان) عند الوصل: كانَ زيدٌ: كَا. نَ. زَي. دُنْ

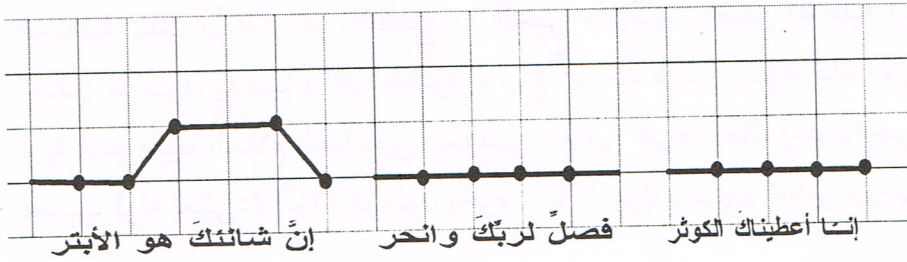
ظ: مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان: 173، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، عبد العزيز الصبيغ: 278-279، المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، د. عبد الصبور شاهين: 380-380.

يظهر في الكلمات: (إنّا، والكوثر، وانحر، وإنّ، وهو، والأبتر).

ويقع النبر في الكلمات المؤلفة من ثلاثة مقاطع أو أكثر على المقطع الثاني، إذا كان من المقاطع المتوسطة، بالعد العكسي⁽¹⁾، وذلك يظهر في كلمة: (فصل)، أما إذا كان ما قبل المقطع الأخير من المقاطع القصيرة: (صامت + صائت قصير)، نظر إلى ما قبله، فإن كان من المقاطع القصيرة أيضا كان النبر على المقطع الثالث، حين نعدّ من آخر الكلمة، وذلك يظهر في كلمة: (شأنك)، وإذا لم يكن المقطع الثالث قصيرا فالنبر يقع على ما قبل الأخير⁽²⁾.

وتحمل كلمة: (أعطيناك، ولربّك) نبرين، أحدهما ثانوي والآخر أساسي، ذلك أنهما من الكلمات الطويلة بسبب انضمام لواحق لهما وسابق عليهما، لإنشاء نوع من التوازن بين مقاطعهما شريطة أن تصبح الكلمة من حيث مطلق حروفها وسكناها بوزن كلمتين قصيرتين؛ لأن بنيتها حينئذ لا تقنع بالنبر السابق⁽³⁾. وذلك يظهر في كلمة: (أعطيناك = أعطي + ناك = رامي + أمس)، وكذلك كلمة: (لربّك = لرب + بك = أتى + لك).

ويمكن أن نحول علامات النبر إلى مخطط بياني كالآتي:



(1) ظ: البيان في روائع القرآن: 182/1.

(2) ظ: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها: 52/1، البيان في روائع القرآن: 181/1.

(3) ظ: البيان في روائع القرآن: 182/1.

ويظهر هذا المخطط أن الآيتين الأوليين لهما إيقاع مطرد حاد واحد، ينتج من تتابع نبر لكل مقطع غير منبور، فينتج من ذلك خط مستقيم، يدل على الثبات والصلابة والحسم⁽¹⁾، يصور لنا ثبات العلاقة وصلابتها بين الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وربه من جهة أخرى. في حين يظهر انحناء في إيقاع الآية الثالثة سببته كلمة: (شانئك)، التي يبطئ عندها الإيقاع النبري، الذي يأتي النبر بعد مقطعين، وهذا الإبطاء الذي يظهر في المنحني يعدّ مثيراً أسلوبياً، ذلك أنه الانحناء الوحيد في الإيقاع النبري الحاد المهيمن في السورة الكريمة، الذي تبلغ نسبته 78.6%، ولذلك تستحق كلمة: (شانئك) أن نتوقف عندها؛ لأنها تؤلف ملمحاً أسلوبياً متميزاً، لذا يمكن عدّها هي الأساس الذي يحكم حركة الإيقاع النبري ومعاني النص الإيحائية، ومنها يمكن أن نبتدئ بالتأويل، فمبغض الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الأبتَر، وإن كان له ولد؛ لأنّ المبغض غير مؤمن برسالته فهو كافر منقطع عن الخير بإزاء الإنسان الكامل (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لم ينقطع عنه الخير الكثير دنياً وآخرة، ولهذا لم يصبح أبتَر وإن مات ولده. وهذه هي الرؤية الإسلامية المخالفة للرؤية الجاهلية، ذلك أنّ البتر هو الانقطاع عن الخير، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) موصول به دنياً وآخرة، فكثرة الأتباع⁽²⁾، يعدّ كوئراً، سواء كانوا من ذرية ابنته عليها السلام الصالحين المؤمنين، أم من غيرها. فالمؤمنون أخوة بحسب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾⁽³⁾، يؤلف بينهم أساس روحي

(1) ظ: معجم السيميائيات، فصل الأحمر: 80.

(2) ظ: المحرر الوجيز: 529/5، مفاتيح الغيب: 126/32، الجامع لأحكام القرآن: 148/10،

روح المعاني: 479/10.

(3) سورة الحجرات: 10.

واحد ينزل منزلة الأم والأب، وهو ما آخى بين أبي تمام وعلي بن الجهم،
يقول أبو تمام:

إن يكذ مطرف الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد
أو يفترق نسب يؤلف بينها أدب أقمناء مقام الوالد⁽¹⁾

الخاتمة:

وقد توصل البحث إلى جملة من النتائج أهمها:

1. اتضح ثمرة استعمال المنهج السيميائي في الكشف عن دلالة العلامة (الكوثر)، وتبيان معانيها المتعددة في السورة المباركة، ذلك أن العنونة من ناحية سيميائية تداولية تعدّ مكوناً من مكونات النص، وموجهاً قرائياً لها ولا تعدّ محسناً ينظر إليه وكأنه عنصر مضاف لا يضرّ حذفه.

2. إن كثرة الدلالات التي أوجدها عنوان السورة الكريمة (الكوثر) نتج بفعل انفتاح النص، واختلاف زاوية رصد المفسر، فمنهم من اعتمد على المأثور من أحاديث نبوية شريفة، وشواهد تتعلق بأسباب النزول، ومنهم من نظر إلى سياق النص، ليجيء بمعانٍ تتناسب دلاليّاً مع السياق اللغوي وعلاقاته المعقّدة، فضلاً عن ذلك فإن كلمة (الكوثر) لها دلالة كدلالة لفظ (الشيء)، كلاهما معرف بـ (أل)، لكنّ (أل) التعريف لا تفيدهما تعريفاً، فهي معرفة كالنكرة في عموم دلالتها الواسعة. وبهذا أصبح العنوان (الكوثر) خصب التأويل، فكل خير كثير يصدق عليه.

3. لعنوان السورة الكريمة (الكوثر) علاقة دلالية بكل أجزاء النص، فهي تتصل بباقي الآيات على المستوى العميق؛ لأنّ الأمر بالصلاة والنحر يتعالتق بالإعطاء المعبر عنه بـ (الكوثر) من جهة المُعطى له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويتعالتق مع وصف الشانئ تعالقاً تقابلياً. وهذا يجعل بنية النص قائمة على إيقاع: تشابه / تشابه / اختلاف؛ أي توليد نمط وكسره، وهذا يظهر في الإيقاع السجعي، إذ تتألف

(1) ديوان أبي تمام: 78.

كلمات الآيات الثلاث كالآتي: (3-3-4)، وكذلك تظهر البنية نفسها في الإيقاع النبري الذي يطرد بنسق حاد واحد في الآيتين الأوليين، إذ ينتج من تتابع نبر لكل مقطع غير منبور، فينتج من ذلك خط مستقيم، يدل على الثبات والصلابة والحسم، يصور لنا ثبات العلاقة وصلابتها بين الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وربّه من جهة أخرى، في حين يظهر انحناء في إيقاع الآية الثالثة سببته كلمة (شأنك) التي يبطئ عندها الإيقاع، إذ يأتي النبر بعد مقطعين غير منبورين، وهذا الإبطاء الذي يظهر في المنحني يعدّ مثيراً أسلوبياً، ذلك أنه الانحناء الوحيد في الإيقاع النبري الحاد المهيمن في السورة الكريمة، إذ تبلغ نسبته 78.6%، ولذلك تستحق كلمة: (شأنك) أن نتوقف عندها؛ لأنها تؤلف ملمحاً أسلوبياً متميزاً، لذا يمكن عدّها هي الأساس الذي يحكم حركة الإيقاع النبري ومعاني النص الإيحائية، ومنها يمكن أن نبتدئ بالتأويل، فمبغض الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الأبر، وإن كان له ولد؛ لأنّ المبغض غير مؤمن برسالته فهو كافر منقطع عن الخير بإزاء الإنسان الكامل (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لم ينقطع عنه الخير الكثير، ولهذا لم يتر وإن مات ولده. وهذه هي الرؤية الإسلامية المخالفة للرؤية الجاهلية، لأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) موصول بالخير الكثير دنيا وآخرة، فكثرة الأتباع، يعدّ كوثرًا، سواء كانوا من ذرية ابنته (عليها السلام) المؤمنين، أم من غيرها.

4- لا يوافق الباحث المفسرين المحدثين الذين ضيقوا معنى (الكوثر) بمعنى واحد، إثارة للتناسب المعنوي وحده بين آيات السورة الكريمة الثلاث. الذين يظهر عندهم بتحديد المعنى بكثرة النسل وحده، ولا سيما أنّ هذا التأويل لم يقل به المفسرون القدامى من مختلف المذاهب الإسلامية، لأنه مخالف للرؤية القرآنية التي أكدّها إيقاع السورة بنوعيه: السجعي والنبري، لذا يكون كثرة نسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من ابنته فاطمة (عليها السلام) أحد مصاديق الكوثر، وليس هو المصداق الوحيد، أو الأفضل.